العرب
الجمعة 2021/07/09
السنة 44 العدد 12114

الفيلم التلفزيوني الحلقة المفقودة في الدراما التونسية

ممثلون تونسيون: التلفزيون العمومي تخلى عن دوره الريادي

«13 نهج غاري بلدي».. مغامرة جريئة لم يكتب لها الاستمرار

باتت الأفلام التلفزيونية غائبة عن المشهد الدرامي في تونس في العشرية الأخيرة بعد أن تخلّى التلفزيون الوطني العمومي عن دوره في إنتاج هذا الصنف من الدراما التي كانت تُؤنس السهرات التلفزيونية للعائلات التونسية خلال عقد التسعينات من القرن الماضي وما تلاه. فهل لم يعد لهذا الصنف من الدراما مكان في خارطة البرمجة التلفزيونية، أم أن لهذا الغياب أسبابا أخرى غير معلنة؟

صابر بن عامر
صحافي تونسي

تونس – أعاد عرض قناتي الوطنية الأولى والوطنية الثانية (عموميتان)، مؤخرا، لمجموعة من الأفلام التلفزيونية التونسية على غرار "ولد البسطاجي" و"اعترافات المطر الأخير" وسلسلة "ابحث معنا"، سؤالا قديما ما انفكّ يتجدّد، مفاده لماذا غابت هذه النوعية من المسلسلات عن المشهد الدرامي التونسي، والحال أن تونس شهدت ما بعد ثورة 14 يناير 2011 تسونامي غير مسبوق في عدد المحطات التلفزيونية فاق العشر فضائيات بين عمومية وخاصة؟

"العرب" طرحت على بعض الممثلين التونسيين سؤال: هل بات ما يُصطلح على تسميته لدى عموم التونسيين بـ"التيلي فيلم" أو السهرات التلفزيونية موضة قديمة مضى زمانها وانقضى؟ أم يعود ذلك إلى غياب الكتّاب القادرين على التكثيف الدرامي في عمل تلفزيوني من ساعة ونصف الساعة؟

أحمد الحفيان

مشكلات الدراما التونسية انحسرت مؤخرا في السيناريو الجيّد

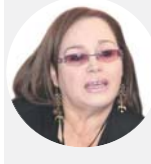

دليلة المفتاحي

الكتّاب موجودون، لكن أصحاب القرار لم يعد يعنيهم المضمون

نصاف بن حفصية

اليوم بتنا لا نُنافس على الجودة، وإنما كيف نُحقّق نسب متابعة عالية

محمد علي دمق

إنتاج الأعمال الدرامية بمختلف أجناسها أصبح خاضعا لقانون المنافسة

فأتت إجابة كل من أحمد الحفيان ونصاف بن حفصية ودليلة المفتاحي متحسّرة على هذا الغياب غير المبرّر لسهرات تلفزيونية جمعت في وقت مضى شتات العائلة التونسية على طبق درامي دسم يمزج الإمتاع بالتثقيف أيضا، دون السقوط في متاهة الوعظ والإرشاد.

ويقول الحفيان "هذه الأعمال هي من صميم اختصاص التلفزيون الوطني العمومي الذي يظل من أوكد واجباته الارتقاء بالذائقة الجمالية للمُشاهد التونسي، الذي كان ولا يزال يرى في قناته الأم القاطرة التي عليها أن تقود بقيّة القنوات للنسج على منوالها. لكنها وللأسف تخلّت في العشرية الأخيرة عن دورها الريادي والطلائعي المنوط بعهدتها، فارتدّت الدراما التونسية بشكل عام إلى مراتب دونية، أساسها الربح على حساب الكيف القيّمي".

غياب غير مبرّر

يرى الحفيان أن مشكلات الدراما التونسية في الوقت الراهن انحسرت في السيناريو الجيّد القادر على شدّ انتباه المُشاهد بعيدا عن المسلسلات الرمضانية المُمطّطة بموجب أو دونه، فالمخرجون والممثلون موجودون، بل ومتميّزون، وفق توصيفه.

لكن انسحاب بعض كتاب السيناريو الكبار من المشهد على غرار علي اللواتي صاحب رائعة "اعترافات المطر الأخير" (1992) أو نورالدين الورغي كاتب فيلمي "ريح الفرنان" (1997) و"بنت الكيوسك" (2002)، علاوة على رحيل جمال الدين خليف كاتب السلسلة البوليسية الشهيرة "ابحث معنا"، عمّق هذا الغياب، بل وأنهى هذه النوعية من الدراما أصلا.

وهو ما تتّفق فيه معه الممثلة المسرحية نصاف بن حفصية التي تقول "لو عدنا إلى نوعية الأفلام التلفزيونية التي كانت تُعرض على التلفزيون العمومي التونسي، ودقّقنا فيها لوجدنا على رأسها أهم كتاب الدراما التونسية ومخرجيها، ولعل غيابها اليوم يعود إلى ندرة الكتّاب المتخصّصين، وإلى عدم قدرة هذه النوعية من الأعمال على منافسة المسلسلات الطويلة ذات المواسم المتتالية واللانهائية أحيانا، إلى جانب السيتكومات الهزلية التي يسعى المُنتج والقناة الباثة لها إلى تحقيق نسب مشاهدة عالية، ممّا يدرّ دخلا ماليا محترما للقناة وجهة الإنتاج على السواء، وهو حقّ مشروع لا محالة لكلا الطرفين".

وتضيف بن حفصية في تصريحها لـ"العرب"، "لهذا ربما عرض فيلم تلفزيوني من حلقة واحدة أو اثنتين لا يضمن للمنتج ولفريق العمل نسبا عالية من المشاهدات، وكأننا اليوم لا نُنافس على الجودة أو المحتوى، وإنما كيف نُحقّق نسب متابعة عالية باعتماد ممثلين أو أسماء أو حتى وجوه قادمة من مواقع التواصل الاجتماعي تضمن للقناة الربح السريع، ليس أكثر".

وعلى خلاف رأي الحفيان وبن حفصية تقول الممثلة المخضرمة دليلة المفتاحي "الكتّاب موجودون وخزينة التلفزة الوطنية تزخر بعدد كبير من السيناريوهات الجيّدة، لكن المشكلة تكمن في أصحاب القرار الذين لا تعنيهم هذه المشاريع رغم أنها غير مكلفة مقارنة بالأعمال الأخرى، وهذا محزن حقا".

والرأي ذاته دعّمه السيناريست والممثل محمد علي دمق الذي قال في تصريح لـ"العرب"، "المسألة الإنتاجية والربحية تحديدا هي التي أثّرت بشكل مباشر في إقصاء هذه النوعية من الأعمال الدرامية من المشهد، ولا علاقة لشحّ السيناريوهات أو عدم رغبة المخرجين في إنتاج مثل هذه الأعمال في غيابها".

وتميّزت الدراما التونسية بين سنوات 1990 و2010 بالتنوّع على مستوى الكتابة أو المواضيع الاجتماعية اللصيقة بمشاغل المجتمع التونسي والعائلة التونسية، وأيضا على مستوى النوعيّة، حيث تنوّع المنتج الدرامي بين المسلسلات الطويلة والمسلسلات القصيرة والسيتكومات وكذلك الأفلام التلفزيونية التي كانت تُعرض خلال نهاية الأسبوع وخارج شهر رمضان على شكل سباعية كسلسة "آمال" لسالم بن عمر (1997)، أو رباعية كسلسلة "خطى فوق السحاب" لعبداللطيف بن عمار (2003)، أو حتى في حلقة واحد كـ"بنت الكيوسك" لخالد برصاوي و"طين الأجبال" لعلي منصور (2004) وغيرها الكثير.

تنوّع مفقود

هي أفلام تلفزيونية حُفرت عميقا في الذاكرة الجماعية للتونسيين بتنوّع موضوعاتها التي تحدّثت عن إكراهات تحيق بالمرأة التونسية العاملة أو الطالبة أو ربة البيت في المدينة والريف على السواء، كما قُدّمت في "ريح الفرنان" و"بنت الكيوسك" و"طلاق إنشاء" و"رسالة حب"، أو تلك التي عالجت مُشكلات الاختلاف كـ"ولد السطاجي" الذي يروي قصة ابن مريض بالتوحّد، لكنه ذكي يحفظ كل المعاجم ويُجيب على كل الأسئلة الثقافية المُمكنة، وهو ما جعل والده يستفيد منه لكسب المال، إلى أن يتعرّف الشاب الفاقد لعاطفة الأمومة – بعد رحيل والدته وهو طفل – على فتاة تعاني من الوحدة مثله، ليستحيل سويّا معافى.

وثالثة تطرّقت لإكراهات الزواج من أجنبيات وما يعنيه هذا الزواج المُختلط من صراع هويات ومدى انعكاس ذلك على الأبناء، كما قدّمه شريط "اعترافات المطر الأخير" الذي يعدّ باكورة إنتاجات التلفزيون التونسي في هذا المجال.

ويقترح الحفيان لتلافي بعض النقص الحاصل في كتّاب السيناريو التونسيين أن تُشرف مؤسّسة التلفزة التونسية على دورات تكوينية، وإن كانت مسائية، لخلق جيل جديد من كتّاب السيناريو الشباب يُشرف على تأطيرهم ثلة من أمهر كتاب الدراما التونسية، فيتخصّصون في كتابة السلسلات الدرامية القصيرة أو الأفلام التلفزيونية التي باتت موضة العصر ومطلبا ملحا من منصات العرض الإلكترونية، وبذلك تحصل الفائدة للجميع، من كتّاب سيناريو وممثلين ومخرجين ومنتجين، بالإضافة إلى ما يحقّقه هذا التوجّه من انتشار للمُنتج التونسي على المستوى العربي، ولمَ لا العالمي أيضا.

وهو ما تأمله بدورها بن حفصية، التي لا ترى مناصا من عودة هذه النوعية من الدراما إلى الشاشات التونسية، بعد أن ملّ المواطن التونسي بلاتوهات التوك شو السياسية التي اجتاحت المشهد الإعلامي دون إفادة تُذكر.

وعلى غير المتوقّع بادرت قناة "التاسعة" الخاصة في شهر أبريل الماضي بإحيائها ثيمة السهرات التلفزيونية عبر سلسلتها الجديدة "13 نهج غاري بلدي"، التي أتت شبيهة شكلا ومضمونا بسلسلة "ابحث معنا" التي كان يبثّها التلفزيون العمومي التونسي في أواسط ثمانينات القرن الماضي، إلاّ أن القناة توقّفت عن عرض بقية حلقاتها مع حلول شهر رمضان، فاسحة المجال لمسلسل "أولاد الغول"، على أمل العودة إلى السلسة بعد انتهاء الموسم الرمضاني، لكن ذلك لم يحدث حتى اللحظة.

وقبلها، استبشر المُشاهد التونسي خيرا، بمبادرة قناة "الحوار التونسي" الخاصة في شهر فبراير الماضي، بإقدامها على إنتاج السلسلة الكوميدية "إن شاء الله مبروك" التي تمّ عرضها بمعدل حلقة في الأسبوع، مساء كل اثنين، قبل أن تتوقّف بدورها خلال شهر رمضان فاسحة المجال للبرمجة الرمضانية، لتستأنف عروضها ثانية إثر انتهاء الموسم، وإن اختلفت "إن شاء الله مبروك" عن "13 نهج غاري بلدي" من حيث الطرح وخاصة التصنيف.

فالأولى سيتكوم كوميدي من حلقات متصلة، والثانية سلسلة بوليسية منفصلة يمكن مُشاهدة كل حلقة منها منفردة دون الحاجة إلى مُشاهدة بقية الحلقات، ما يقرّبها من صنف الأفلام التلفزيونية التي باتت معدومة في المشهد الدرامي التونسي، وهي بادرة تُحسب لقناة "التاسعة" رغم عدم استمرارها، فهل سحبت القنوات الخاصة البساط من تحت أقدام التلفزيون العمومي في هكذا صنف من الدراما؟ أم أن الأمر لا يتعدّى كونه مجرد موجة عابرة سرعان ما تضمحل.

عن هذا السؤال يجيب دمق "ربما غامرت بعض القنوات الخاصة بإنتاج هذا الجنس من الدراما التلفزيونية بشكل عرضي/ تنافسي، إلاّ أنها لا تضمن لها المتابعة الوفية والدائمة، على عكس المسلسلات المتكوّنة من عدة حلقات، والتي تجعل المُشاهد يرغب في متابعة تطوّر الأحداث، في حين أن تحديد موعد بث قار لفيلم تلفزيوني يعدّ هنا مُغامرة غير مضمونة العواقب، لذلك يتجنّبوها، إلاّ في ما ندر".

سيف الدين سبيعي: البطولة الجماعية سرّ نجاح «على صفيح ساخن»

قليلة هي المسلسلات العربية التي تترك أثرا في قلوب المُشاهدين بعد انتهاء العرض، إلاّ إذا كان الموضوع المتطرّق إليه حارقا كما هو الحال مع المسلسل السوري "على صفيح ساخن" الذي وقع تكريمه مؤخرا في أمسية حوارية ناقشت العمل من كل جوانبه الفنية والتقنية وإمكانية إنجاز جزء ثان منه.

دمشق – كرّم غاليري "مصطفى علي" بالتعاون مع مؤسسة "ع سيار" في العاصمة السورية دمشق أسرة مسلسل "على صفيح ساخن" عبر أمسية حوارية تناولت فكرة العمل ومضمونه، وذلك بحضور كل من مخرجه سيف الدين سبيعي وكاتبه علي وجيه وبعض أبطاله في حوار مباشر مع الجمهور الذي ثمّن فكرته وجرأته في طرح مواضيع مسكوت عنها لم تتطرّق إليها الدراما السورية من قبل.

وخلال اللقاء أكّد مخرج العمل سبيعي أن أهم ما ميّز المسلسل وساعد على نجاحه اعتماده على القالب الجماعي، فكل من شاركوا فيه أبطال حقيقيون، ولكل بطل قصته وتاريخه وهواجسه. وبيّن أن النجوم تنازلوا عن أجورهم للمشاركة في العمل، ولم يتم التعامل مع المسلسل على أساس تحقيق البطولة والحصول على الأجر الأكبر.

وكشف سبيعي عن تحضيرات تجري في الكواليس حاليا للعمل على جزء ثان من المسلسل، مردفا أن المسلسل كتب منذ بدايته ليكون في جزأين، إلاّ أن الأمر موكول هنا لشركة "غولدن لاين" المنتجة للعمل.

وفي وقت سابق أصدرت الشركة المنتجة للعمل بيانا كتبت فيه "إن جميع الأخبار المتداولة عن وجود جزء ثان من 'على صفيح ساخن' مجرد تكهنات إعلامية أو رغبات جماهيرية". وأشارت إلى أن قرار إصدار جزء ثان لم يحسم بعد.

وفي ما يتعلق بشارة المسلسل قال سبيعي "لم ألجأ إلى الشارة المغناة، لأنها باتت تجارة يسوّق عبرها العمل، وأنا أفضّل في أعمالي القادمة اختصار وقت الشارة ليصل إلى 15 ثانية فقط".

وبيّن المؤلف الموسيقي رضوان نصري أن كل نص درامي يحمل نوتات موسيقية خفية ضمن مفرداته وأحداثه، وهي التي تساعد المؤلف الموسيقي على التقاطها لتحويلها إلى عمل موسيقي، مؤكّدا أن خيار طاقم العمل كان عدم تقديم أغنية في شارة البداية.

وقال علي وجيه الذي كتب نص العمل بالشراكة مع الفنان يامن الحجلي "الهدف الأساسي لنا ككاتبين هو القرب من الناس ونقل همومهم ويومياتهم بأمانة مع تحقيق المتعة للجمهور في الوقت ذاته، وإيصال مقولتنا حتى يخرج بالشكل النهائي الذي يقدّم على الشاشة".

وأضاف "أردنا من خلال المسلسل أن نسلّط الضوء على عالم مهمّش ومنسي، فكلنا نرى جامعي القمامة من حولنا، لكننا لم نغص أبدا في عالمهم السري وكيف يعيشون حياتهم القاسية"، مردفا "الرقابة كانت متعاونة جدا، على الرغم من حساسية الفكرة التي يطرحها العمل".

ولفت الفنان محمد قنوع، الذي لعب دور شخصية "أبوكفاح" في العمل، إلى أن فكرته مأخوذة من الواقع وأبطاله موجودون في الحياة ويمكن رؤيتهم في كل يوم، وأن الكاتبيْن رسما الشخصيات بشكل قريب جدا من الواقع، وجاء عمل المخرج والممثلين ليكملوا هذا العمل بشكله النهائي، فكان قريبا من الجمهور الذي أحبّهم وتعاطف معهم.

أما الفنان جمال قبش فأوضح أن عنوان العمل مأخوذ من فيلم أميركي واقعي هو "قطة على صفيح ساخن" وأيضا الحكاية لها علاقة بـ"أوبرا القروش الثلاثة" لبريخت التي غاصت في قاع المدينة لتعرية حقيقة المجتمع. وهذا ما اعتمد عليه المسلسل في تقديم قصص أناس يعيشون على هامش الحياة، مبيّنا أن الكاتبين غاصا من خلال نصهما في حياة أناس بعيدين عن الأضواء، لذلك أحب الجمهور العمل بما يحمله من هموم وتفاصيل واقعية، وهذا دور الدراما في تسليط الضوء على قضايا حقيقية ومصيرية.

ورأى الفنان عبدالرحمن قويدر أن النص كان مكتوبا بشكل احترافي وجاء عمل المخرج ليضيف الكثير من التفاصيل حتى خرج بشكله النهائي، مشيرا إلى أنه أضاف إلى شخصية "الخفاش" التي قدّمها بعض التفاصيل.

وعن الصعوبات التي واجهته خلال تصوير العمل قال قويدر "شخصية الخفاش تعتبر من الشخصيات المركبة، فهي دائما متواجدة بمكبات القمامة بالإضافة إلى ظروف الجو غير المساعدة أبدا"، وعن أصعب مشهد أداه في العمل أكّد أنه كان مشهد الحفرة.

سيف الدين سبيعي

إمكانية إنجاز جزء ثان من مسلسل «على صفيح ساخن» واردة

وتحدّث الفنان الشاب سليمان رزق عن تجربته في المسلسل مُعربا عن سعادته بالنجاح الذي حقّقه العمل وشخصيته فيه (النباش رواد)، وقال إنه تلقى نصائح كثيرة أثناء مرحلة التصوير يعتبر أن أهمها نصيحة والدته الفنانة أمانة والي "لا تخبئ مشاعرك وأطلق لها العنان".

وبدورها قالت الفنانة الشابة آنا السيد إن "شخصية دارين التي قدّمتها شدّت الجمهور إليها ورسخت في أذهان المتابعين، رغم أن حجم الدور كان صغيرا، ولكنه مع الحالة المختلفة والجديدة في العمل شكلا عامل جذب للجمهور".

وحصد مسلسل "على صفيح ساخن" المراتب الأولى في نسب المشاهدة على المستويين المحلي والعربي، وهو يتتبّع جانبا من حياة المهمشين أو المنسيين في ذاكرة المدن الكبرى التي تعيش فيها شرائح اجتماعية مختلفة غير متجانسة، على رأسها يأتي جامعو القمامة، أولئك الذين يشاهدهم الجميع يوميا، لكنهم لا يفكّرون لحظة بأنهم يشكّلون شريحة كبيرة لها طباعها وعلاقاتها؛ فالنابشون في القمامة ورافعوها شريحة تقاسم غيرها من المهن المنسية عوالم حياة غريبة وقاسية.

والعمل من تأليف علي وجيه ويامن الحجلي وإخراج سيف الدين سبيعي، ومن بطولة سلوم حداد وباسم ياخور وأمل بوشوشة وعبدالمنعم عمايري ويامن الحجلي ونظلي الرواس وميلاد يوسف ويزن خليل وسليم صبري وعلياء سعيد وعبدالفتاح المزين وجنى العبود وعدنان أبوالشامات، وغيرهم.

مسلسل يسلّط الضوء على ظواهر اجتماعية إشكالية